آفاق الحضارة الإسلامية، أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية
السنة السابعة عشرة، العدد الثاني، الخريف والشتاء ١٤٣٦ هـ .ق، ١٤١ – ١٦٤

دراسة أسباب تأخّر الشرق الإسلامي من منظور الزهاوي

مهرعلي يزدانپناه*

الملخص

تميّز جميل صدقي الزهاوي، بشخصيّة مميّزة، علميّة وفلسفيّة وسياسيّة وأدبيّة. يبدو من خلال أشعاره، كعالم اجتماع متضلّع يعرف الدهاليز المظلمة والمتداخلة من شؤون المجتمع الإسلاميّ. فاضطلع بتسليط الأضواء على شتّى الأسباب المؤثّرة في انحطاط الشرق في عصره، دون أن يترك كلّ صغيرة وكبيرة منها. وكثيراً ما تتردّد كلمة الشرق، أو ما يلائمها في أشعاره. فالمجتمع الإسلامي، عنده، رغم ماضيه الحافل بالتقدّم والازدهار، انحدر إلى الحضيض وإلى أشقى البلاد تخلّفاً. هذه الدراسة باعتمادها على المنهج الوصفي ــ التحليلي، تسعى إلى دراسة الأسباب التي أخّرت الشرق الإسلامي عند الزهاوي.

الكلمات الرئيسة: أسباب التخلّف، الشرق الإسلامي، الشعوب، الحكومات، الزهاوي.

١. المقدّمة

نظرة عابرة إلى تأريخ الإسلام تكشف لنا أنّ الخلفاء الراشدين وبني أميّة تمكّنوا من توسيع دائرة الإسلام الجغرافيّة. وما إن جلس بنو العبّاس على العرش حتّى تحوّل مقرّ الخلافة إلى

* أستاذ مساعد في قسم اللغة الفارسية وآدابها جامعة آزاد الإسلامية بقائم شهر
dryazdanpanah1379@yahoo.com
تاريخ الوصول: ١٣٩٣/٥/٢٧، تاريخ القبول: ١٣٩٣/٨/١٧

Archive of SID

www.SID.ir

بغداد وبدأ العصر الذهبيّ للإسلام بفضل ما حصلت الدولة عليه من الثروات الهائلة وكذلك لأجل البيئة المتعدّدة الثقافات والمائلة إلى العلم والترجمة، مبتدئا بالمنصور (١٥٨-١٣٦ ه.ق) لإشعاله الشرارة الأولى لهذه النهضة التي بلغت غايتها في عهد المأمون (١٩٨-٢١٨ ه.ق) لتحريضه على العلم. وعندما جاء المتوكّل (٢٣٢-٢٤٧ه.ق) بدأ ــ وللأسف ــ المنحني السلبيّ لنموّ الحضارة الإسلامية وذلك لتخلّيه عن خطوة العلم والتعقّل. وعلى أيّ حال،كما يعترف الكبار من علماء الإسلام وغيرهم، حدث للمسلمين ازدهار وتقدّم علميّ في القرن الأوّل من العصر العبّاسي؛ وإن كان غير مستقرّ. والمؤرخ رينان البريطاني يعتقد أنّ ازدهار العرب لم يكن حاصل ترجمتهم فحسب بل نتيجة لتسرب الفكرالعربي (كالين، ١٣٧١: ٢٨٤) ويقول جورج سارتون: «إن كان المجتمع البشريّ في ازدهاره العلميّ القديم مديناً لليونان (غرب) فإنّ رقيّه في القرون الوسطى رهين للمساعي التي بذلها المسلمون (الشرق)» (١٣٥٣: ٤١). يبدو ــ وللأسف الكبير ــ أنّ العالَم الإسلاميّ بعُد شيئاً فشيئاً عن موكب العلم والحضارة وفقد عزمه وإرادته للتقدّم. لايسع المجال دراسة الأسباب هنا. فمنذ ذلك الحين فصاعداً انقلب الدهر ظهراً على بطن فصار الشرق الإسلاميّ يرعى مرعى الغرب كأنّه نام ملء جفنه دون أن يفيق أو ينتبه.

الهدف الرئيس من هذا البحث، هو دراسة أسباب تأخّر الشرق الإسلامي من منظور الزهاوي. إذن، الأسئلة المحوريّة في هذه الدراسة هي كما يلي: ١. ما هو رأي الزهاوي عن جغرافيّة سياسيّة تمثّل الشرق الإسلامي؟ ٢. ما هو موقف الزهاوي تجاه تخلّف الشرق الإسلاميّ؟ ٣. ما هي الأسباب التي أخّرت الشرق الإسلامي عند الزهاوي؟

ولد الزهاوي سنة ١٨٦٣ ببغداد وتعرّف على اللغات العربيّة، الفارسيّة والتركيّة خير المعرفة (يزدانپناه، ٢٠١٢: ٤٩). أكبّ الشاعر على القراءة بصورة دؤوبة، وتمكّن من خلالها أن يحصل على كتر زاخر من الفكر والأدب. أصبح الزهاوي عضواً لمجلس المعارف في ولاية بغداد سنة ١٨٨٦م؛ وصار نائباً لأبناء بغداد. شارك الزهاويّ، في مؤتمر الفردوسيّ الذي أقيم بطهران، ومن خلال هذا المؤتمر، كان له مباحثات ومناقشات كثيرة مع صديقه الحميم ملك الشعراء بهار (الشهرستاني، ١٣٥٧: ٥٥) وفي فترة الاجتياح

Archive of SID

www.SID.ir

البريطاني للعراق، تمّ تعيينه عضواً لمجلس المعارف ببغداد ورئيساً للجنة ترجمة القوانين العثمانيّة. وكان من الأعضاء الدائمة لمجلس الشيوخ والأعيان في العراق، إلى أن انتقل إلى عرش بارئه سنة ۱۹۳٦ (الفاخوري، ۱۹۸٦: ٤۱۳). له آثار وكتابات في مجالات مختلفة منها: ۱. *رباعيّات الخيّام*، ترجمة شعرية ونثريّة لرباعيات الخيّام، ۲. ستة دواوين شعريّة.

۱.۱ خلفيّة البحث

لا بأس أن يشار هنا إلى قضيّة الإستشراق (orientalism) التي هي بغضّ النظر عن أهدافها العلميّة أو السياسيّة أو الدينيّة، دراسة علميّة شاملة، قام بها الغرب، حول القضايا المختلفة في الشرق (سعيد، ۱۳۷۷: ۹۵). فاشتهر الكثير من المستشرقين بآثارهم عن الشرق. سبق للباحثين أو المعنيين بالشرق أيضاً، أن عرضوا لأسباب تخلّف الشرق. ولكن بالنسبة للزهاوي فلم يتمّ بحث مستقلّ لدراسة ما تهدف إليها المقالة حسبما أعلم. يذكر كنموذج ما يلي:

۱. كتب *شهريار نيازي*، زهرا جهانگيري اصفهاني وآمنه جهانگيري اصفهاني مقالة عن «المرأة في شعر جميل صدقي الزهاوي». درس كتّابها قضيّة المرأة العربيّة التي صمدت أمام الاستبداد السائد، طلباً لحقوقها المنتهكة عبر القرون العديدة. كما أشاروا إلى الظروف الاجتماعيّة المتخلّفة في العراق (نيازي، ۱۳۸٦: ۱۵۵-۱۷۲).

۲. درس حسين *ناظري ومحمودآبادي*، في مقالة لهما، باسم «الباثولوجيا الاجتماعيّة من منظور الزهاوي»، المواقف السياسيّة والاجتماعيّة عند هذا الشاعر. وتطرّقا فيها إلى الصدمات المختلفة التي يعاني منها المجتمع العراقي في عصر الشاعر، خاصّة قضيّة التعليم وتحرير المرأة (ناظري، ۱۳۹۰: ۱۱۹-۱۵۰).

۳. دوّنت *قاسمي فرد وميرقادري*، مقالة تحمل عنوان «دراسة مقارنة لصورة المرأة في شعر جميل صدقي الزهاوي و ملک الشعراء بهار». تدرس المقالة منزلة المرأة في العراق وإيران طوال القرن التاسع عشر والعشرين من خلال أشعارهما. وتذكر في الخاتمة، العديد من وجوهات النظر المشتركة بينهما (قاسمي فر، ۱۳۹۰: ٦۵-۸۸).

Archive of SID

www.SID.ir

٢. جغرافيّة الشرق الإسلامي من منظور الزهاويّ

تعني كلمة «orient» لغة: الشرق، المشرق. كذلك «east»: شرقاً، شرقيّ، الشرق، المشرق البلدان الواقعة شرقيّ أوربة (البعلبكّيّ، ١٩٩٢: ٦٣٨، ٣٠٢) وكانت مساحة الشرق عند المستشرقين تختلف عبر تأريخ الاستشراق الطويل، بين الشرق الأوسط والأقصى والأدنى والبلدان الإسلاميّة وغير الإسلاميّة. ولكن أحدث حدوده الجغرافيّة هي الجغرافيا الدينيّة فتقتصر على البلدان الشرقيّة المسلمة فقط. والتي نحن بصدده في هذا البحث المتواضع.

الظروف السائدة في البلدان الإسلاميّة كانت لا يختلف البعض عن البعض في عصر الشاعر. تتردّد كلمات مثل: الشرق، العراق، بغداد في أشعاره كثيراً. وليس من الغامض لدارس أشعاره لكي يدرك أنّه يقصد الشرق الإسلاميّ مستخدماً ما سيأتي من المفردات: الشرق، الناس، الورى، العراق، القوم، العرب، بغداد، نحن و ... كما كثرما يصرّح باسم دولة عربيّة وإسلاميّة منها الإيران.

٣. هل الشرق متخلّف من منظور الزهاوي؟

ينمّ شعر الشاعر عن تخلّف كبير في الشرق وانحطاط ساقط في مهواة الشقاء ويكون الأمر على مردّ لسانه. وإنّه في الأغلب والأعمّ، عندما يتصدّى لتأخّر الشرق يذكر الغرب مقارناً بينهما ضمناً أو صراحةً. فالغرب عنده سعيد برقيّه ولكن الشرق رغم ماضيه الحافل بالتقدّم والازدهار انحدر إلى الحضيض وأشقى البلاد تخلّفاً.

وَسِعَ الغربَ و لما ... يَسَعِ الشرقَ رقيُّ
فإذا الغربُ سعيدٌ ... وإذا الشّرقُ شَقِيّ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٣٩٦)

إنّ أَشقَى البِلادِ ما كان يَجري ... في أَراضيهِ دجلةُ والفراتُ
وفي سالفِ الزمانِ بلادٌ ... عامراتُ الأكنافِ مُرتقياتُ

(المصدر نفسه: ٨١)

Archive of SID

www.SID.ir

٤. أسباب تأخّر الشرق عند الزهاوي

الزهاوي يبدو من خلال أشعاره كعالم اجتماع متضلّع يعرف الدهاليز المظلمة والمتداخلة من شؤون الشرق الإسلاميّ خاصّة العراق؛ فاضطلع بتسليط الأضواء على شتى العوامل الاجتماعيّة المؤثّرة في انحطاط الشرق الإسلاميّ دون أن يترك كلّ صغيرة وكبيرة منها. دفعني استقراء أشعاره التي هي مرآة صافية لأفكاره السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة وغيرها، أن أصنّف أسباب تأخّر الشرق عنده إلى خمسة عوامل بصورة الأعمّ وهي: ١. الشعوب، ٢. الدول، ٣.مكافحة العلوم، ٤.الجهل الديني، ٥. التدخّل الأجنبي.

١.٤ الشعوب

أثبتت إنجازات البشريّة علماً وتجربة أنّ للشعوب في رقيّها دوراً ممتازاً لا يحاذيه ولا يجاريه شيء.كما أيّدها الفكر الدينيّ القرآنيّ «إنّ الله لا يُغَيِّرُ مَا بِقومٍ حَتَّي يُغَيِّرُوا مَا بأَنفُسِهِم» (الرعد: ١١). وإذا وافق المرء أنّ الأصل الإسلاميّ الراقي أي «الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر» بداءة بدء يرمي إلى مسؤوليّة الشعوب تجاه الحكّام و أنّ حدّه الصارم لا يهدف إلّا إلى القادة المسيطرين على مصائر الشعوب أوّلاً؛ إذ القدرة و الثروة أكثر تأثيراً في دفع الرجل للفساد، ثمّ بعد ذلك يقصد الأقرباء والمعاريف. فبناء على هذا لايمكن أن ينكر أحد دور الشعب في المجتمع. فمن البديهي، إذا ترك شعب أعباء هذه المسؤوليّة الهامّة فكان المقصد هو الخراب. هذا ما صرح به عليّ (ع) أيضاً: «لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيُولّي عليكم شراركم» (الصالح، ١٣٨٧: ٤٢٢). هنالك الكثير من الكتّاب والساسة في الشرق الإسلاميّ الذين ألقوا مسؤولية تأخّره بأسره على عاتق التدخّل الأجنبيّ أو الاستعمار، تاركين النقد العلميّ للمجتمع الراهن الحافل بالفشل والإحباط والتخلّف، راضين بذكر الماضي الزاهر. والراقم لهذه السطور يرافق اولئك الدارسين الشجعان الصدوقين الذين شمّروا عن سواعدهم حتى ينقبوا عن جذور هذا التخلّف المزمن، مصدّقاً بأنّنا ما

Archive of SID

www.SID.ir

دمنا نخطىء علّة المرض ولانصدّق على الواقع المرّ «ما حكّ جلـدك مثـل ظفـرك» (صيني، ١٩٩٢: ٣٤) فلا يتحقّق لنا العلاج المحتوم.

يقدّم الزهاوي فهرساً كبيراً من الموانع والعراقيل التى حالت دون رقيّ الشعوب الشرقيّة وبما أنّ هذا الفهرس الشعبي ينطوي على عوامل ذات أهمّية كبيرة فصار من الصعب سردها وإعطاء الأولويّة لكلّ منها. فتمّ اختيار الأولويّة على حسب ما يبدو للراقم فأهمّها هي:

١.١.٤ الشعوب الشرقيّة لا تريد الرقيّ

يعتقد الشاعر أنّ الشرقيّ المسلم عكس الغربيّ، وقف على شفير الهلاك و لم ينل رقيّاً؛ لأنّهم لم يقدروا على تصريف فعل الإرادة، إذ «إذا الشعب يوماً أراد الحياة/ فلا بـدّ أن يسـتجيب القدر» (الشابّي، ٢٠٠٠: ٧٠). فإنّ الإرادة هي التي تسهّل طريق التقدّم الوعر أمام الأقـوام الأحرار الغيارى العطاش إلى المعالي؛ إذ «على قدر العزم تأتي العزائم» (صيني، ١٩٩٢: ٤١).

أرادَ نـاسٌ فَحَـازُوا هُـم رقيّـاً مجيـداً
وقـد وَقَفنَـا لأنَّـا لم نَستَطِع أن نُريـدا

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٣٩٦)

يا قومُ قد وَعَرَ الطريقُ أمـامَكُم فإذا عَـزَمتُم تَسـهُلُ الأَوعَـارُ

(المصدر نفسه: ٢٥٠)

٢.١.٤ الجهل والغفلة

كلمة الجهل، عند الزهاوي يقابله العلم الذي هو غذاء للعقول ورافع للأمم. فما من أمّـة ارتقت سلّم التقدّم، طوال الحياة البشريّة إلّا وقد تمسّك بعروة العلم الوثقى فحظي بأثمارها المسعدة. إنّ الشاعر يؤكّد في غير مكان على خطورة هذه الداهية (الجهل و الغفلة) الـتي حلّت بالشرق بعد أن كان موطناً للعلم ومؤيّداً وممدّاً له فصار بكلّ الأسـف، أهلـه في سبات عميق يرتع كالأنعام في مرتعه، مرحّبين بكلّ ضروب الجهالة، دون أن ينتبه أو يفيق وينشط. الجهل وحده كاف عند الزهاوي لتخليف كلّ أمّة؛ فلا حاجة إلـى المعـدّات

Archive of SID

www.SID.ir

العسكريّة سيفاً أو غيره؛ إذ هو وحده يصمّ الآذان المصغية ويعمي الأبصار البصيرة في كلّ مجتمع فيغيض معين الإصلاح والنصح والهداية فيه.

سَتَرقَى بلادُ الشرقِ بعدَ انحطاطِها لو أنَّ بَنيها استَيقَظُوا وتَعَلَّمُوا

(الزهاوي، ۱۹۲٤: ۱۵۳)

هو الجهلُ أَخَّرَنَا وحدَهُ فلا النارُ ضَارَت وَلا السيفُ ضَامَا

(المصدر نفسه: ۳۳۳)

كَم ارتَفَعَت من أُمَّةٍ بعدَ أمّةٍ بإسعادِها لِلعِلمِ والعِلمُ يَرفَعُ

ولكنَّنا مِن دونِ كلِّ جماعةٍ مِنَ النّاسِ كَالأَنعَامِ في الجَهلِ نَرتَعُ

(الزهاوي، ۱۳۲۷: ۱۳)

۳.۱.٤ كسل أهل الشرق

من زرع الكسل فلا يحصد إلّا الحرمان، كما جاء في الأمثال: «الجَدّ في الجِدّ والحرمان في الكسل» (الصيني، ۱۹۹۲: ١٤). هذا ما ثبت على محكّ التجربة البشريّة. فكلّ أمّة أرادت أن تغادر أزمة التأخّر عليها أن تتحمّل المصائب والمكاره ــ كما فعل الغرب ــ على حسب قول الشاعر ــ بصبرها واجتهادها حتّى تحقّق غاياتها السامية. فأهل الجدّ والصبر لا يبالون الصعاب والمشاقّ التي يواجهونها، فهم قادرون على التغلّب عليها من كثرة ما واجهوها. ولكن أهل الشرق من رؤية الزهاوي، الكسالى، المتهاونون، المتريّثون، غير متعبين أنفسهم والماشون الهوينا فيعيشون في خيبة وشقاء وجهل وظلم وأضرار، بعيدين عن السعادة.

تَأَخَّرَ القَومُ في البغدادِ مِن كَسَلٍ وكَم تَأَخَّرَ قومٌ عندَهم كسلُ

(الزهاوي، ۱۳۲۷: ۳۷۵)

الغربُ والشرقُ حتَّى اليومِ ما استَوَيَا هذا نَشيطٌ وهذا بَعدُ كَسلانُ

(المصدر نفسه: ۳٦٤)

Archive of SID

www.SID.ir

٤.١.٤ قضيّة المرأة في الشرق الإسلاميّ

للمرأة وقضيّتها في الشرق الإسلامي مكانة واسعة عند الشاعر. هناك خمس معانات تعاني بها المرأة الشرقيّة من خلال أشعاره، ولكلّ منها نصيب وافر في تخليف الشرق على حدّ تعبيره و هي:

١.٤.١.٤ المنزلة الخاطئة للمرأة المسلمة. للمرأة دور كبير في إنشاء الحضارات ليس أقلّ من الرجل. فمن يستطيع أن يدّعي حضارة أو تقدّماً حقيقيّاً مستمرّاً في التاريخ لا فضل فيه للمرأة. يستدلّ الزهاوي على رقيّ الغرب بتقدّم نسائه وبعزّتهنّ الجمّة فيه. فهنّ عنده مدرسة للأبناء وعضد للآباء. فتخلّف أبناء الشعب الإسلامي لتأخّر نسائه على حدّ تعبيره.

لولا النساءُ لما بانَ لِلحَضارةِ شكلٌ
عَلَى الشعوبِ بِمَرقَى نسائِها يُستَدَلُّ
لهنّ في الغربِ عِزٌّ جَمٌّ وفي الشرقِ ذُلُّ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٣١٢)

ليسَ تَرَقَّى الأَبناءُ في أمّةٍ ما لم تَكُن قد تَرَقَّتِ الأُمَّهَاتُ

(المصدر نفسه: ٤٠٧)

٢.٤.١.٤ عدم تساوي حقوق المرء والمرأة في الشرق. دعا الزهاويّ أهل الشرق إلى الالتزام بتساوي حقوق المرء والمرأة، معتبراً ايّاهما بجناحي الطائر يطير بهما معاً فلا يغني الواحد عن الآخر للتحليق والطيران. والذي تمّ إنجازه في الغرب من دخول المرأة في مجال القضاء والبرلمان والبحوث العلميّة وغيرها يبدي لنا أنّ ظروف المرأة الغربية معاكسة لنظيرتها الشرقيّة. فلا ينبغي لنا أن نترك هذا العضو الشريف مشلولاً فيخلّ نظام المجتمع.

إنّما المرأةُ والمرءُ سَواءٌ في الجَدَراةِ
وهل الطائرُ إلّا بجناحَيهِ يَطيرُ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٣٩٧)

وإنّها مِن عُلُوٍّ علَى الرجالِ تَطُلُّ شجاعةً لا تُبارَى وهمّةً لا تَكِلُّ

Archive of SID

www.SID.ir

وإن تَكُن قَبلَ ذَا قَد ضَلَّت فأَنتَ المضِلُّ أَ تَرتَضِي أَنّ هذا العضوَ الشريفَ يَشَلُّ

(الزهاوي،۱۹۲٤ :۳۱۳)

۳.٤.۱.٤ انتهاك حقوق المرأة في الشرق. كلّما تحدّث الشاعر عن حقوق المرأة خاطب المسلمين أو الشرق. المجتمع الشرقيّ في رأيه في ضلال و جهل، مستخفاً بحقوق المرأة، مُحِلّاً إيذاءها، كأنّها حيوان أو متعة جنسيّة لا يهديها عقل. فلا يمكن للشرق أن ينقذ نفسه من وهدته إلّا باحترام حقوقها.

الناسُ في الشرقِ ضَلُّوا سبيلَهُم وأَضَلُّوا
وبالحياةِ استَخَفُّوا وبالحقوقِ أَخَلُّوا
ظَنَّ النساءَ رجالٌ صِنفاً أَذَاهُ يحلُّ

(الزهاوي، ۱۹۲٤: ۳۱۱)

لا يَرفَعُ الشعبُ مِن أَعماقِ وَهدَتِه إلّا رجالٌ أُولُو عزمٍ ونِسوانُ

(المصدر نفسه: ۳٦٦)

٤.٤.۱.٤ الحجاب. وهو بمعنى اللبُس للرجل والمرأة، ليس من المستجدّات؛ بل نجد لبنته في ذات البشر منذ القديم، فكان لكلّ زمان لبسة. هناك خلاف بين المسلمين في كمّه ونوعه. الذي يبدو هامّاً في هذا المجال أنّ العفاف هو المقصود من الحجاب وهو لا يخصّ المرأة فقط بل يشمل على الرجل أيضاً. إنّ نقد الزهاوي اللاذع للحجاب السائد في عصره بين المسلمين ــ حيث كان يُهدَّم صرح حريّة المرأة من أسّها بذريعة الحفاظ على الحجاب ــ تاريخ مؤلم سيجرح قلب كلّ انسان منصف في المستقبل. فكان الحجاب آنذاك بمعنى أنّ المرأة محظورة على الخروج من المترل حتّى لطلب النور أو الهواء النقيّ وأنّها غير قادرة أن تُشارك في شأن من شؤون المجتمع علماً، عملاً، إنتاجاً وغير ذلك. فالحجاب بهذا المعنى عند الشاعر، إنّما هو القبر وسجن في كلّ صقع عند المسلمين وللمسلمات. فلا مغبّة له إلّا تخليف الشرق الإسلاميّ وشلّ نصف من طاقتهم البشريّة.

هَكَذَا المسلمونَ في كُلِّ صَقعٍ حَجَبُوا لِلجهالةِ المسلماتِ

Archive of SID

www.SID.ir

سَجَنُوهُنَّ في البيـــوتِ فَشَـــلُّوا نصفَ شعبٍ يَهُـــمُّ بالحركـــاتِ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٣٠٩)

أَحَرَّ المســـلمينَ عـــن أُمَـــمِ الأَ رضِ حجابٌ تَشقَى بِهِ المسلماتُ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٨١)

إنَّ هذا الحجابَ قـــبرٌ كثيـــفٌ حَالَ بـــينَ الفَتَـــاةِ والنَّسَـــمَاتِ
إنَّ هـــــذا إثْمٌ أُقَبِّحُـــــهُ مـــــا جاءَ حَـــضٌّ عليـــه في الآيـــاتِ
تلك أعمالُهم مِنَ الجهلِ عَـــدُّو ها عَلَى سُوئِها مِـــنَ الحَسَـــنَاتِ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٣٠٩)

٥.٤.١.٤ الطلاق. هو من المعضلات التي عانى منها المجتمع الإنساني آلاماً فظيعة. من منظور الشاعر يختلفُ الطلاق في الشرق عمّا في الغرب لاختلافهما ثقافة ولما يترتّب عليه الأمر فيهما من الآثار السلبيّة.

كَم هَدَّ في الشـــرقِ بعدَ الزواجِ الفـــراقُ
كراهـــــةٌ فسَـــبَابٌ فركَلَـــــةٌ فطـــــلاقٌ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٢٥٥)

٥.١.٤ الارتداد عن التدبير في الشرق

وهو لغة: «التدبير في الأمر: أن تنظر إلى ماتؤول إليه عاقبته و التدبّر: تفكّر فيـــه» (ابـــن منظور، لسان العرب: مادّة دبر). وإن أكّد الإسلام التدبّر والتعقّل تأكيداً قـــلّ بديلـــه في أديان أخرى، بيد أنّنا نواجه مشهداً يعكس في واقع الحياة عند المسلمين ولا في الغـــرب. فالشرقيّ لاهٍ بالقشور لا باللباب في دينه ودنياه، متعصّب، مضيّق على عقله، أسير للقيود والعادات السيّئة يحترمها لحدّ العبادة. فليس حرّاً في فكره يهمّه الرأي والحجا؛ إذن، لايفرق بين يديه سداد الرأي والخطل. وليس عدّته العلم، فحياته مليئة بالسكون فليس بالحركة.

الغربُ مُســـتندٌ إلـــى التـــدبيرِ والشرقُ مُعتمِدٌ عَلَـــى التقـــديرِ
الغربُ قد أَخَذَ اللبـــابَ لِنفســـهِ والشـــرقُ لاهٍ أهلُـــهُ بِقشـــورِ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٢٦٧)

Archive of SID

www.SID.ir

هو التعصّبُ قــد واللهِ أَخَّــرَكم عنِ الشعوبِ التي تَسعَى فتَقــرُبُ

(الزهاوي، ۱۹۲٤:۳۰۷)

٦.١.٤ الأخلاق الاجتماعية الفاسدة

كما معروف في المثل: «الأمم بأخلاقهم». فإذا فقد أمّة أخلاقها فمن الواجب أن يقام لها مأتماً وعويلاً (شوقي، ١٩٨٦: ١٨٣). بناء على هذا لا يستقيم أمر أمّة إلّا إذا اســتقامت أخلاقها. فالسعادة الحقّة في حسن الأخلاق فرداً وشعباً. الشرق على حدّ تعبير الشــاعر قبحت أخلاقه فصار يكابد ويعاني النفاق، الوقاحة، التعصّب، الكذب، والخدعة والرئاء.

إنَّ أَرضاً لهــا يُقَــالُ العــراقُ قَبُحَت مِن رجالهــا الأخــلاقُ

كلُّ ما فــيهم فلــيسَ يُطــاقُ نَخــوَةٌ عــن وقاحــةٍ ونفــاقِ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٢٧)

٧.١.٤ الصمتُ أمام الظلم

قيل «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» (الصيني، ١٩٩٢: ١٤). التعــاليم الساميّة في هذا المضمار، آية أو حديثاً أو مثلاً أو حكمة التي تتراوح بين المســلمين لا تعدّ ولا تحصى. وبالرغم من كلّ هذه، أصبح الشرق الإسلاميّ ملاذ حكّــام ظلمــة ومأمنهم. فلاينتهي عمر دولة ظالمة فيه إلّا يتبوّأ مكانها أسوأ منها. فما نصيب أهله من الحكّام إلّا ظلم متزايد غير قابل للتقييم كمّاً وكيفاً. ومن جانب آخر وهب الله الدول الإسلاميّة الكثير من الخيرات تحت الأرض أو خارجها برّاً أو بحراً، ولا يحظى بها سوى القليل من الأسرة الحاكمة وأنصارها المرتزقة. ما ردّ فعل المسلم تجاههــا؟ وللأســف الكبير، الشرقيّ أمام هذه السلاطين الجابرة لا يعرف سبيلاً سوى الصــمت الســقيم القاتل كأنّه ميّت ليس له فم.

قد سَكَتنا وَلَيتَنا مــا سَــكَتنا في بلادٍ كــثيرةِ الأَزَمَــاتِ

في بلادٍ نُسَامُ فيهنَّ خَســفاً ونُطيلُ السكوتَ كــالأمواتِ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٢٨٨)

Archive of SID

www.SID.ir

٨.١.٤ عدم الاكتراث للأدب

إنّ للأدب دور راقٍ في تنوير رأي العامّ وتوسيع الثفافة عند الأمم. فللأدب وللأديب في الغرب قدر واحترام جمّ. وكان الأدب ــ في رأي الشاعر ــ سبباً لارتقاء الأمة الإسلاميّة في عصرهم الذهبي.

قد تَرَقَّتِ العربُ بعدَ ما ارتَقَى الأَدَبُ
إنّه لِنَهضتِها وحدَهُ هو السَبَبُ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٢٥١)

ما للأديبِ بقُطرِهِ في الشرقِ قَدرٌ يُذكَرُ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٦٣)

٢.٤ الحكومات و الدول

لا ينطلي على أحد دور الحّكام وفضلهم في قيادة الممالك وهدايتها إلى العلم والمال والازدهار. فهذا ممّا لا ريب فيه؛ إذ، كما قيل «إذا كان القائد بوماً كان المقصد خراباً». من ناحية أخرى، القادة قدوات يحتذي بها الشعب. فبهم الأسوة في كلّ شيء ظاهراً أو باطناً وعلماً أو مالاً وحبّاً أو كراهةً؛ لأنّ «الناس على دين ملوكهم». وإذا نعيد النطر إلى دراسات غير قليلة حول العصر الذهبي الإسلامي أو بعده فأوّل ما يسترعي نظرنا هو الدور الإيجابي للخلفاء العبّاسيّة من هارون و مأمون و معتصم وغيرهم في هذا الازدهار الفاخر و الدور السلبي للمتوكّل و من تلاه في الانحطاط المُدمّر المتواصل.

ومن جهة أخرى إنّ البحوث التي عنيت بتخلّف الشرق وأسبابه لم تترك صغيراً وكبيراً ممّا يرتبط بدور الدول أو قضيّة التدخّل الأجنبي. إلّا أنّ الإشكال الوارد عليها يتوجّه نحو قلّة أخذها بعين الاعتبار على الدور الرئيسي للشعوب في الشرق. وممّا يلفتُ النظر في هذا المضمار أنّ الزهاوي عرف مكانة هذه الأسباب كلّها حقّ المعرفة فسردها ورتّبها في منزلتها الحقيقيّة. إنّه في البداية يعترف على فضل استيقاظ الشعوب وتعلّمها ثمّ يؤكّد دور الحكومات وأخيراً يشير إلى التدخّل الأجنبي.

Archive of SID

www.SID.ir

سَتَرقَى بلادُ الشرقِ بعــدَ انحطاطِهــا لــو أنَّ بنيهــا اســتَيقَظُوا وتَعَلَّمُــوا
يَزُولُ تمامــاً مــا بهــا مِــن تَــأَخُّرٍ لــو أنّ حكومــاتِ الــبلادِ تُــنظَمُ
لقد طالَ صبرُ الشرقِ يا غربُ فازدَجِر فإنّك إن لم تَزدَجِــر سَــوفَ تَنــدَمُ

(الزهاوي، ۱۹۲٤: ۱۵۳)

۱.۲.٤ حكومة الأراذل على الأفاضل

يبدو أنّ هذا العامل أكثر تأثيرا بين سائر الأسباب الحكوميّة على تأخّر الشرق وإن قدّمت الدراسات المعنيّة، المشكلة الاستبداديّة إلى المرتبة الأولى. يعتقد الزهاوي أنّ الطبقة الحاكمة في الشرق من المخفوضين لا من العليا والفضلى. فيكرم فيه ذو نقص ويُنكَى السيّد الشريف الكريم. كما يكون العزيز والنجيب فيه محقّراً ومعذّباً وكذلك الرتب والوسامات اللامعة المتباهَية بها كذبة. فَهم الشاعر المشكلة حقّ الفهم ولا مردّ ولا سبب لها عنده إلّا الجهل. فمن الطبيعي أنّ المجتمع لايبلغ رشدها إذا كان الطبقة المنوّرة المصلحة العالمة في عزلة، معذّبة مشرّدة بعيدة عن سُدَّة الحكم والتقنين و القضاء. ومن أشعاره:

قَضَى اللهُ أن تَشقَى بلادٌ بأهلِهــا فيَكرمُ ذو نقصٍ ويَنكِي سميــدعُ
بلادٌ بها قد ضاعَ مَن كان فاضلاً وللْمُلكُ مِن أهلِ الفضيلةِ أَضــيعُ

(الزهاوي، ۱۹۲٤: ۱۳)

ولا الرُتَبُ المعطاةُ تُرَفِّــعُ شــأنَهُ اذا لم يَكن في فعلِهِ مــا يُرَفِّــعُ

(المصدر نفسه: ۱۱)

۲.۲.٤ الحكومات المستبدة ذات سلطة مطلقة

هي من الآفات الكبيرة للرّقيّ في الشرق. من مؤشّراتها عند الشاعر أنّ الحاكم المســتكبر الطاغي وهو ظلّ الله في أرضه لا يُسأل عن فعله. وله الصلاحيات المطلقــة، فــلا قيمــة للناصح المصلح عنده. يسوس دولته الهمجيّة البوليسيّة بما يقضي هواه وليس بالتدبير، رافعاً الجاهل وخافضاً العاقل، كأنّ الناس أسرى عبيد عنده فلا يعاملهم بالإشفاق والرحمة.

فيا وَيحَ قومٍ فَوَّضُوا أمرَ نفسِــهم إلى ملكٍ عن فعلِه لــيسَ يُســأَلُ

Archive of SID

www.SID.ir

إلى ذي اختيارٍ في الحكومةِ مطلقٍ إذا شاءَ لم يَفعَل وإن شاءَ يَفعَـلُ
وذي سلطةٍ لا يَرتَضِي رأيَ ناصحٍ إذا قالَ قَـولاً فهـو لا يَتَبَـدَّلُ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٩-١٠)

أَ يَأمُرُ ظِـلَّ اللهِ في أرضِـهِ بِمـا نَهَى اللهُ عنهُ والرسـولُ المُبَجَّـلُ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ١٠)

يبدو أنّ هذه المشكلة المتّسع نطاقها في الشرق لها جذور تاريخيّة، فلا يمكن الخـلاص منها إلّا بالشؤون الثقافيّة الكثيفة الرامية إلى تثقيف المجتمع وتنويره شعبا وقيادة كما اهـتمّ بها الزهاوي من خلال أعماله.

نَسـعَى لِنفـعِ الآخَـرِي نَ مِنَ الذينَ لهم مَنَاصِـبُ
ونَعِيشُ في حالـةِ النَعَـا سَةِ بِالأمـاني الكـواذبِ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٤٩)

يا مالكاً أمرَ هَذِي النّاسِ في يـدِهِ عامِل برفقٍ رَعَايـاكَ المسَـاكينَا
ليسَت طريقُك محمودا مَغَبَّتُهـا غَيِّر إذا شئتَ في الأحوالِ تَحسينَا

(المصدر نفسه: ٦٣-٦٤)

٣.٢.٤ نشر الجهل

انتهت الحكومات الشرقيّة رغم ماضيها الزاهي بالعلم إلى حكّام خالقة للرشى والسرقات والفساد والظلم و التخريب والنهب. فلا ترى من مصلحتها إلّا نشر الجهل سارّة به؛ لأنّ العلم ـــ كما يؤكّد الشاعر ـــ مرشد للانسان لكي يعرف حقوقه ويدافع عنها.

وعُوّضَ عنها دولـةٌ ثمّ دولـةٌ تُسَرُّ بكَونِ الجهلِ في النّاسِ فَاشياً
وذاكَ لأنّ العلمَ للمرءِ مُرشِـدٌ يُعَلِّمُهُ عـن حقِّـه أن يُحاميـا

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٥٧)

٤.٢.٤ الحكومة الأمنيّة و انعدام الحرّيّة فيها

من البديهيّات عند كلّ ذي لبّ سلم وجدانه، أنّ الحرّيّة موهبة إلهيّة، خوّلها الله الإنسـان.

Archive of SID

www.SID.ir

فلا يستطيع أحد أن ينكرها أو يسلبها. يعتقد الشاعر أنّ الشرق فقدت الحرّيّة بكلّ أنواعها المصادق عليها عند منظّمات حقوق الإنسان من حرّيّة التفكير و التعبير واختيار نوع الحكم وغيرها. فبدأ الشرقي يعيش في بيئة بوليسيّة تضيّق العقول وتضع الأضواء الحمراء أمام طرائق الفكر كلّها، فلا نصيب للأحرار إلّا ركوب الخطوب والأهوال والنفي والسجن أو الهلاك. فالطقس الأمنيّ جعل نصف الشعب جاسوساً على نصفه الثاني فأصبح الراحة غادة، يتعطّش الشرقيّ إلى لقياها.

يا شرقُ أنتَ عَلَى العقول مُضيقُ　　والغربُ مُبقيها بلا تَضييق

(الزهاوي، ۱۳۲۷: ۲۷۸)

إنَّ حرّيةَ الكلام رَدَاحٌ　　تَتَفَانَى في حبِّها الأرواحُ

(الزهاوي، ۱۹۲٤: ۲۷)

ما نالَ في بغدادَ آمَالَه　　إلّا الذي قد كان جاسوساً

(المصدر نفسه: ۲٦۲)

٥.۲.٤ حكومات لاتقبل الإصلاح

هذه الميزة داء مزمن، أعيى كلّ شرقيّ حرّ مصلح. فجعله خائباً، فَقَدَ أمله في الإصلاحات المنقذة الضئيلة مؤونة؛ فيلتجأ إلى ثورات باكرة أوانها، لا تلحقه إلّا الخسران والندم؛ فيعود في حقبة غير طويلة إلى مكانتها الأولى. إنّ الإصلاح أمر لا مفرّ منه في أيّ مجتمع. الحكومات الدكتاتوريّة والمستبدّة، لا تدور رحاها إلّا مدار حجر الهوى؛ فلا تشعر بحاجة إلى تقييم المتطلّبات المستجدّة للشعوب وتفعيل إرادتها في إدارة البلد بأسلوب علميّ وعلى أيدي أخصّائيين معنيين. فليس أمام الشرقيّ الحرّ من ملاذ إلّا الثورة. الأمر الذي يتعارض تماماً مع نظيرها في الغرب حيث بنيت الحكومات المتحضّرة الغربيّة على أعمدة، بنيتها التحتيّة الإصلاح فلا تلوذ بالثورات بل إلى صناديق الاقتراع أو الاستفتاء.

أ تُصلِحُ في الشرقِ الحكوماتُ شأنها　　لعلَّ الغِنَى والعلمَ يجتمِعَانِ

تَرَاهُم أَغبياءَ عندَ مَصلحةٍ　　وفي المفاسدِ تَلقَاهُم شياطينَا

(الزهاوي، ۱۹۲٤: ٦٤)

Archive of SID

www.SID.ir

وَعدُها بالإصلاحِ جَــمٌّ ولكــن لا يجوزُ الإصلاحُ حدَّ الكــلامِ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٢٩١)

٦.٢.٤ فقدان العدل في الشرق

العدل بمعانيه المتنوّعة خاصّة، المعنى الذي يقابل الظلم، يطرح نفسها عند الزهاوي غالبــاً. وهو منعدم في الشرق عكس الغرب وذلك لتفشّي الظلم ملء الشرق الإسلامي كلّــه. إنّ مدلولات العدل تتردّد في مواضع كثيرة جدّاً عنده، فلا يسع المجال ذكرها هنــا، حيــث يستحقّ أن نعدّ العدل ضالّته المنشودة.

الظلمُ حــيٌّ فيــه نــامٍ شــائعٌ والعدلُ ميّتٌ لا يجيبُ إذا دُعِــي

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٨٦)

لا أَرَى بينَ الغربِ والشرقِ بوناً غيرَ أنّ الأحكــامَ مختلفــاتُ
سَيُوافي مَــدَى التقــدُّمِ قــومٌ وَسِعَت فيه منــهم الخطــواتُ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٨١)

٧.٢.٤ انتهاك حقوق الإنسان في الشرق

بالرغم من أنّ التعاليم الإسلاميّة الساميّة تزهو باحترامها الجمّة لحقوق الإنسان، حتّى لحقــوق الحيوان؛ بيد أنّ المجتمع الإسلامي لا يزال يفتقر إلى الحفاظ على هذه القيم العالية. فالزهــاوي بصراحة تامّة ودون أيّة رقابة يرفض الانتهاكات اللاإنسانيّة الفاشية لحقوق الإنسان في الشرق.

الشرقُ أكثرُهُ لِلحَــقّ مُهتَضِــمٌ والغربُ أكثرُهُ لِلحَــقِّ مُــذعانُ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٣٦٤)

الحديث عن الإنتهاكات لحقوق الإنسان في آثاره ذات جوانب متعدّدة. يمكن للقارئ أن يرتّبه على الشكل التالي:

١.٧.٢.٤ انتهاك حقوق الشعب بصورة عامّة

وَهَــبَ اللهُ للرعايــا حقــوقٌ غَصَبَتهَا مِــنَ الرعايــا الــوُلاةُ

(المصدر نفسه: ٢٨٦)

Archive of SID

www.SID.ir

۲.۷.۲.٤ انتهاك حقوق المرأة

النّاسُ في الشرقِ ضَلُّوا سبيلَهُم وأَضَلُّوا
وبالحياةِ استَخَفُّوا وبالحقوقِ أَخَلُّوا
ظَنَّ النساءَ رجالٌ صنفاً أذاه يحلّ

(الزهاوي، ۱۳۲۷: ۳۱۱)

۳.۷.۲.٤ انتهاك الحقوق العلميّة

العلمُ يا بلداً نشأتُ بأرضِهِ ضاعَت لديكَ حقوقُهُ وحقوقي

(المصدر نفسه: ۲۲۷)

لايكتفي الزهاويّ بذكر أمثلة من الانتهاكات هذه فحسب بل يدرس أسبابها في الشرق فيحصيها من خلال أشعاره وهي كما يلي:

۱.۳.۷.۲.٤ الجهل. وهو من أهمّ الأسباب عند الشاعر لانتهاكات المتزايدة للحقوق في الشرق. يعتقد الزهاويّ كلّما استمرّ جهل الشعوب الشرقيّة لحقوقهم وتأييدهم للحكّام ازداد تدمير الشرق وتحوّلها إلى أطلال.

إنّي أَظُنُّكَ لا تَرَى بمكانها من بعدِ بِضعِ سنينِ غيرَ رمادِ
فهناك أهلٌ يجهلُون حقوقَهُم وحكومةٌ تَعتُو ودهرٌ عادِي
هم أَيَّدُوا الحكّامَ في تدميرِها فكأنّهم لو يخجَلُون أَعَادِي

(المصدر نفسه: ۱٤۳)

۲.۳.۷.۲.٤ افتقار الشرق إلى أحزاب. لا شكّ أنّ تواجد الأحزاب المسلّحة بوسائل الإعلام في كلّ مجتمع من العوامل الرادعة عن أيّ انتهاك.

لِكلٍّ هَوًى في الشرقِ حزبٌ مؤيّدٌ سِوَى أنّ فيهِ الحقُّ ليسَ بذِي
ولا يَصِلُ الإنسانُ في طلبِ العُلَى إلى مترلٍ حتّى يَسيرَ عَلَى الدّربِ

(المصدر نفسه: ۳۳۵)

۳.۳.۷.۲.٤ غياب العدل بين أهل الشرق لكثرة ما تفشّى بينهم من الفساد والظلم

Archive of SID

www.SID.ir

حتّى ظلّ الانتهاك أمراً اعتياديّاً بحيث لا ينهض الشعب عليه. فهمّ أهل الشـــرق كلّهـــم الحفاظ على المصالح الشخصيّة فلا يهمّهم المجتمع.

الظلمُ حـــيٌّ فيـــهِ نـــامٍ شـــائعٌ والعدلُ ميّتٌ لا يجيبُ إذا دُعِـــي

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٨٦)

إذا ما رجالُ الشرقِ لم يَنهضُوا مَعاً فأَضيَعُ شيءٍ في الرّجالِ حقوقُهـــا

(المصدر نفسه: ١٤٩)

٨.٢.٤ عدم الاستقرار في الشرق

وهو من أَشدّ الكوارث المدمّرة في كلّ مجتمع. الشرق من جهة تعاني طيشان حكّام متقلّبين مدارهم الهوى. ومن ناحية أخرى تقاسي قوانين طائشة. وأضف إلى ذلك انعدام الأمن.

كَيفَ القرارُ علَى الأرزاءِ في بلدِي إنّ السفينةَ في الأمواجِ تَضطَرِبُ

(المصدر نفسه: ٨٣)

ليسَ شيءٌ يَضُرُّ بالنّاسِ كالطّيشِ إذا دامَ دافِعـــــاً في الحيـــــاةِ

(المصدر نفسه: ٤٠٧)

والأمنُ قد غابَ عن عينيَّ مشهدُهُ فليتَ ما غابَ عَن عَيني لم يَغِبِ

(المصدر نفسه: ١٣١)

٩.٢.٤ عدم وجود وحدة وطنية في الشرق

السياق الديني والعرقي واللغوي في العديد من البلدان الشرقيّ، يوجّه مسؤوليّة كبيرة نحـــو الحكّام لكي يستخدموها كميزة إيجابيّة للرقيّ، مثلما فعل الغـــرب؛ فأصـــبحت الأقـــوام باختلافها في اللغة والدين والجنسيّة تخدم مصالحه في أمن واستقرار. والأمر بنسبة عكســـيّة في الشرق؛ فهناك نوع من الحسّاسيّة والعداء والاشتباكات وغير ذلك بينهم، وذلك لاتّباع سياسة التفريق والشقاق ولعدم الالتزام بتنفيذ الحقوق المتســـاويّة في المجتمـــع. نـــرى أنّ الزهاويّ يؤكّد غير مرّة خطورة الحفاظ على الوحدة خاصة، ما يرتبط بالأديان؛ إذ لـــيس هنالك حضارة أو تقدّم قد نبعا من التفريق والعداء.

Archive of SID

www.SID.ir

ما سَرَّ بـــالنفعِ قومـــاً في الغربِ إلّا الوفـــاقُ
ومـــا أَضَـــرَّ بقـــومٍ في الشرقِ إلّا الشّـــقاقُ

(الزهاوي، ۱۹۲٤: ۳٤۰)

قومٌ قد اتّحَدَت لِلحقِّ وجهـــتُهُم فلا تُفَرِّقُ بـــينَ القـــومِ أديـــانُ
عاشَ النّصارَى بهِ والمسلمونَ مَعاً و قد تَصَـــافَحَ انجيـــلُ وقـــرآنُ
أمّا البِلادُ فأَدنَى ما رأيـــتُ بهـــا حضارةٌ مَلأَت عـــيني وعمـــرانُ

(المصدر نفسه: ۳٦۳)

۳.٤ مكافحة العلوم في الشرق

كلمة العلم بمعانيها المختلفة، مفتقدة في الشرق افتقاداً، وليس هذا الكلام زعماً. فبدأ أهله يعيشون في جهل مدمّر مع احتقار العالم الخبير. فما صار نصيبهم من الحيـــاة إلّـــا الفقـــر والجهل. فيرى الزهاوي أنه هو الذنب الذي سوف لا يغفره الرحمان.

أمّـــا العلـــومُ فإنّهـــا مفقـــودةٌ بتمامِها وإن إدَّعَاهـــا المـــدَّعي
جَهَلُوا العلومَ فَفَاتَهم نيلُ الغِنَـــى والجهلُ عنـــوانٌ لفقـــرٍ مـــدقعِ
قد يَغفَرُ الرحمنُ كلَّ ذنوبِهم إلّـــا احتقـــارَ العـــالِمِ المتضـــلّعِ

(الزهاوي، ۱۳۲۷: ۸٦)

تجاوز الجهل في الشرق درجة يجهل الشرقيّ تاريخ مملكته التي يعيش بها قديماً أو حديثاً فعسى أن يدخل في فخّ قد وقع فيه وعاناه جيله السابق. هذا ما أجاد إشارته إليه الكاتب *النراقي* في كتابه المعروف *جامعه‌شناسی خودمانی* أي *علم الاجتماع الصـــريح والحمـــيم* تحت العنوان *التأريخ غريب لدينا*، قائلاً: «من الآلام في بلادنا أن يجهـــل أهلنـــا حتّـــى المتعلّمون تاريخهم ... فالشعب الذي لايطّلع على تاريخه و لايقرأه، لا بدّ له إلاّ أن يجرّب أيّ شيء هو نفسه. فهل عنده الفرصة لذلك؟» (نراقي، ۱۳۸۰: ۳۳).

كان ذمّ الجهل يحتلّ مساحة كبيرة في أشعاره. كما كان التوجيه إلى العلم أكبر شاغل له، مؤكّداً أنّ العلم هو العامل للتقدّم الغرب والجهل هو الذي أخّرنا في الشـــرق. يعتقـــد

Archive of SID

www.SID.ir

الزهاويّ أنّ الشرقيّ يكره العلم ويكافحه وكأنّه إثم. في حين نواجه أنّ الجهل محتـــرم في الشرق ممتّعاً بعلوّ الجاه والرتبة في المحافل. ويبلغ الجاهل مبتغاه دون سعي وتعب:

أيُّها العلمُ أنتَ في الشرقِ نُكْـــرُ وآثامٌ و أنتَ في الغـــربِ فخـــرُ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٢٦)

يُؤَدِّي لِرجالِ العلمِ أهلُ الغربِ تبجيلا يُقيمونَ لهم في كلِّ مَيـــدانٍ تمـــاثيلاً

(المصدر نفسه: ٢٥٨)

لا شيءَ في الشرقِ أَعلَى منكَ مترلةً يا جهلُ حسبُكَ هذا المجدُ مِن حَسَبِ

(المصدر نفسه: ١٣٠)

٤.٤ الجهل الديني (ليس الدين سبباً لتخلّف الشرق)

يرفض الزهاويّ كمُدين بالإسلام ما أورده الغربيّون من مزاعم عن جهلٍ بأنّ الإسلام هو السبب في تأخّر الشرق، مؤكّداً أنّ الإسلام أجلّ شأناً من هذه المزاعم من جهة ومن جهة أخرى كفيلسوف جريء يرى من مسؤوليّته أن يدرس ادّعاءاتهم وحججهم دراسة علميّة فيستخلص أنّ ما جاء به المسلمون عن جهل وإساءة فهم للقرآن، من معاناة المرأة وقضـــيّة الحجاب وتعدّد الزوجات وغيرها، خارج عن الدين الإسلاميّ. كما قيـــل «يقولـــون في الإسلام ظلماً بأنّه/ يصدّ ذويه عن طريق التقدّم» (الرصافي، ٢٠٠٢: ٥٣٠).

لَقَد ظَنَّ أهلُ الغربِ أو بعضُ أهلِهِ وبعضُ ظنونِ النّاسِ بالنّاسِ مَـــأثَمُ
بأنّ بقـــاءَ المســـلمينَ جمـــيعَهم عَلَى الجهلِ إعصاراً مِنَ الدّينِ يَنجَمُ
لقد جَهَلُوا الإسلامَ كـــلَّ جهالـــةٍ فآذُوهُ ذَمّاً شأنَ مَن لـــيس يَفهَـــمُ
وعَدُّوا مِنَ الأسبابِ وهيَ عديـــدةٌ لديهم حجابَ المسلماتِ وأَعظَمُوا
وأمّا التعدّي في الـــزواجِ لأربـــعٍ فمِمّا أساءُوا الظَّنَّ فيـــه وأَوهمُـــوا
نَعَم جَـــوَّزَ القـــرآنُ ذاكَ لأهلِـــهِ بشرطٍ إذا راعُـــوهُ فهـــوَ مُحـــرَّمُ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ١٠٥)

Archive of SID

www.SID.ir

يلقي الشاعر أعباء المسؤوليّة على عاتق غلاة المسلمين لإخطاءاتهم في استنتاجاتهم الدينيّة ولتأويلاتهم ولتفاسيرهم الشخصية ولإفراطهم وتفريطهم بعيدين عن القصد والاعتدال.

يقولونَ إنّ الدينَ يجحَدُ رشدَها لقد كَذِبُوا فالدّينُ ليسَ بهِ جَحدُ
و لم يَنفِ رشدَ المرأةِ الدينُ نفسُهُ ولكن غلاةُ الدينِ ليسَ لهم رشدُ
وأَفرَطَ أقوامٌ وفَرَّطَ غيرُهم وإنّ طريقَ المفلحينَ هو القَصدُ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٨٦)

ليسَ تَرَقّى الأَبناءُ في أمّةٍ، ما لم تَكُن قد تَرَقّتِ الأُمَّهاتِ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٤٠٧)

إنه كشاعر مسلم يعتقد أنّ الدين سبب لتنوير الفكر وتقدّم الأمم كما حدث في الغرب. فكان الغربي قد ارتقى سلّم الرقيّ مؤيّداً بالدين. وكذلك كان شأن المسلمين أيّام رقيّهم خلال عصرهم الذهبي حيث ركنوا إلى الدين والعلم فحازوا ما حازوا.

أَ لم تَدرِ أنّ الناسَ في عصرِنا الذي نَعيشُ بِهِ بالدينِ قد نَوَّرُوا الفِكرَا
و ما أمّةٌ إلّا تُدِينُ بصانعٍ يُقرُّ بِذا مَن للشعوبِ قد استَقَرَى

(المصدر نفسه: ١٠٥)

٥.٤ التدخّل الأجنبيّ

كانت موارد النفط، المناجم، المواقع الإستراتيجيّة والأسوق المربحة للبلدان المعنية، عوامل رئيسية للتدخّل الأجنبيّ. بحسب قراءتي، لم أجد دراسة عنيت بأسباب تأخّر الشرق و لم يتصدّ راقمها للتدخّل الأجنبيّ. هذا لا يعني أنّي أنكر تأثير العامل الهامّ على الشرق. ولكن بالنسبة إلى مدى تأثيره، هنالك بون شاسع جدّاً بين تلك البحوث والدراسات بعضها عن بعض. كما أشرت سابقاً هنالك من يبالغ أو يغلو في مدى تأثيره مبتعداً عن المنطق العلميّ فيضع هذا السبب موضع العلّة الرئيسيّة. يبدو أنّ للعامل تأثير كبير جدّاً في استمرار التخلّف وتقويته؛ لكنّ علّة العلل ــ مهما كانت ــ، فلا بدّ أن يتابعها الشرقي في الداخل

Archive of SID

www.SID.ir

وليس في الخارج. لأنّ الاحتكاك بين المشرقين لم يحدث إلّا بعد القرن الثامن عشر وكان الشرق يسيل مسيل انحطاطه قبل ذلك من قرون. هذه من جهة ومن جهة أخرى، كما يؤكّد زيبا كلام في كتابه *ما چگونه ما شديم؟* أي كيف وصلنا إلى هنا؟: إذا اعتبرنا تخلّفنا معلول التقابل بيننا والغرب، فكان هنالك تقابلات بين البلدان الغربيّة أنفسها لا تقلّ مستواها ممّا جرى بين الغرب والشرق؛ فكيف لم يؤدِّ التقابل إلى تأخّرها أو البعض منها. وبتعبير آخر عندما تمّ التلاقي بين الشرق والغرب كان الشرق خاصّة العرب والفرس في تخلّف قديم (زيباكلام، ١٣٨٦: ٢٩٦).

وإن حمّلنا أعباء المسؤوليّة على الاستعمار أو الاستثمار فلم نمش في الطريق الحقّ؛ إذ هناك بلاد ذاقت طعم الاستعمار في قلبها وقالبها كهند إلى سنة ١٩٤٧ لكنّها تحوّلت اليوم أكبر بلاد العالم ديمقراطيّة واقتصاداً وكذلك الصين. وبناء على العقل السليم إذا حسبنا التدخّل الاستعماريّ هو العامل لاستمرار التخلّف بين المسلمين فهذا العامل معلول ولابدّ له من علّة داخليّة، ولا يُعقل البحث عنها إلّا داخل الشرق.

سبق لنا القول أنّ الزهاويّ عرف الأسباب الرئيسيّة لتأخّر الشرق حقّ المعرفة باحثاً عنها داخل الشرق شعباً وحكومة وغيرهما فأكّدها من خلال أشعاره مراراً و تكراراً، لا يمكن عدّها وإحصاءها في مثل هذا المجال. إنّ الشاعر يتطرّق إلى التدخّل الأجنبيّ غير مرّة في أشعاره، مشيراً إلى الأضرار والخسائر التي تكبّدها الشرق لأجله، دون أن يحمّل الغرب المسؤوليّة كلّها أو يدعوَ الشرق إلى المكافحة والحرب واستنزاف الدماء. فسلاحه تنوير الأفكار في الشرق وإلى جانبه، دعوة للغرب إلى الكفّ عمّا يسمّيه الزهاويّ الفخر بالمال والتقدّم، الغرور، الضرر، التزلّف، الإجحاف بحقوق الشرق، سرقة الأموال، الغصب. فمن الممكن أن نعتبره ناصحاً أو ناقداً للغرب أو محذّراً منه.

أ تَزعَمُ أنّ الشرقَ يَلبَثُ صاغراً أمامَك مَعصُوباً وأنتَ المكرَّمُ
وتَبقَى عليه هَكذا مُتَسَيطِراً تمصُّ دمَ الأموالِ فيه وتَهضَمُ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٢٩٣)

Archive of SID

www.SID.ir

لا يخْدعَنْك تَزلُّــفٌ يُــدلي بِــهِ يا شرقُ إنّ الغربَ غيرُ صــديقِ

(الزهاوي، ۱۹۲٤: ۲۸٤)

٥. النتائج

۱. يقدّم الزهاوي فهرساً كبيراً من الأسباب التى أدت إلى تاخّر الشعوب الشــرقيّة مــن خلال أشعاره، منها: أ) الشعوب الشرقيّة لاتريد الرقيّ، ب) الجهل والغفلة، ج) كســل أهل الشرق، د) قضيّة المرأة في الشرق الإسلاميّ، ه) فراغ التدبير في الشرق، و) الأخلاق الاجتماعيّة الفاسدة، ز) السكوت أمام الظلم، ح) عدم الاكتراث للأدب.

۲. عرف الشاعر مكانة الأسباب الحكوميّة حقّ المعرفة فسردها و رتّبــها في منزلتــها الحقيقيّة. منها: أ) حكومة الأراذل على الأفاضل، ب) الحكومات المســتبدة ذات ســلطة مطلقة، ج) نشر الجهل، د) الحكومة الأمنية و انعدام الحرّيّة فيها، ه) الحكومات غير القابلة للإصلاح، و) فقدان العدل في الشرق، ز) انتهاك حقوق الإنسان في الشــرق، ح) عــدم الاستقرارفي الشرق، ط) عدم وجودوحدة وطنيةفي الشرق، ي) مكافحة العلوم في الشرق.

۳. يعتقد الزهاويّ أنّ الشرقيّ يكره العلم ويكافحه وهــو عنــده إثم، وســبب للإيــذاء والأضرار. والعلم والعالم عاجزان عن إدراك بغيتهما. في حين نواجه أنّ الجهل محترم في الشرق.

٤. الجهل الديني عنده، سبب لتخلّف الشرق. يرفض الزهاويّ كمُدين بالإسلام مــا أورده الغربيّون من مزاعم عن جهلٍ بأنّ الإسلام هو السبب في تأخّر الشرق. فيســتخلص أنّ ما جاء به المسلمون عن جهل وإساءة فهمهم للقرآن، خارج عن الدين الإسلاميّ.

٥. التدخّل الأجنبيّ يتبوّأ المكان الأخير عند الزهاويّ. هو لا يدعو الشرق إلى المكافحة أو الحرب ضدّ الغرب. فمن الممكن أن نعتبره ناصحاً أو ناقداً للغرب أو محذّراً منه.

المصادر

القرآن الكريم.

نهج البلاغة (۱۳۸۷ش). تصحيح صبحي الصالح، قم: دار الهجرة.

Archive of SID

www.SID.ir

البعلبكّيّ، منير (١٩٩٢م). *المورد، قاموس انكليزي ــ عربي*، بيروت: دار العلم للملايين.

جمال الدين محمّد ابن منظور (د.ت). *لسان العرب*، المجلّد الرابع، بيروت: دار الصادر.

الرصافي، معروف (٢٠٠٢م). *الديوان*، شرحه الدكتور يحيى شامي، بيروت: دار الفكر العربي.

الزهاوى، جميل صدقي (١٣٢٧ه). *ديوان جميل صدقى الزهاوى*، الجزء الأول الكلم المنظوم ــ الرباعيات، عنى بشره و ترتيبه محمد يوسف نجم، مصر: دارمصر للطباعة.

الزهاوى، جميل صدقي (١٩٢٤م). *ديوان الزهاوى*، مصر: المطبعة العربيّة بمصر لصاحبها خير الدين الزركلى.

زيباكلام، صادق (١٣٨٦ش). *ما چگونه ما شديم؟ ريشه‌يابى علل عقب‌ماندگى در ايران*، طهران: روزنه.

سارتون، جورج (١٣٥٣ش). *مقدمه تاريخ علم*، المجلّد الأوّل، ترجمه غلامحسين صدري افشار، طهران: انتشارات وزارت علوم.

سعيد، ادوارد (١٣٧٧ش). *شرق‌شناسي ادوارد سعيد*، طهران: دفتر نشر فرهنگ اسلامى.

الشابي، ابوالقاسم (٢٠٠٠ م). *ديوان الأشعار*، بيروت: دار العودة.

شوقي، احمد (١٩٨٦م). *الشوقيّات*، بيروت: دار الكتاب العربي.

الشهرستاني، صالح (١٣٥٧ش). *شخصيات أدركتها*، أخرجه الشهرستاني، عباس، قاهرة: د.ن.

صيني، محمود إسماعيل، ناصف مصطفى عبد العزيز و مصطفى أحمد سليمان (١٩٩٢م). *معجم الأمثال العربيّة*، بيروت: مكتبة لبنان.

الفاخوري، حنا (١٩٨٦م). *الجامع في الأدب الحديث*، بيروت: داراالجيل.

قاسمي‌فر، هديّه و فاطمة ميرقادري (١٣٩٠ش). «بررسى تطبيقى سيماى زن در شعر جميل صدقى زهاوى و ملک‌الشعراى بهار»، *فصلّية مطالعات الأدب المقارن*، الرقم ١٧.

كالين، رنان (١٣٧١ش). *تاريخ علم كمبريج*، ترجمة حسن افشار، طهران: مركز.

ناظري، حسين و معصومه محمودآبادي (١٣٩٠ش). «آسيب‌شناسى اجتماعى از ديدگاه جميل صدقى زهاوى»، *الفصلّية العلميّة ــ البحثيّة لنقد الأدب المعاصر*، الرقم ١، السنة الثانيّة.

نراقي، حسن (١٣٨٠ش). *جامعه‌شناسي خودماني*، طهران: اختران.

نيازي، شهريار، زهرا جهانگيري اصفهاني و آمنه جهانگيري اصفهاني (١٣٨٦ش). «زن در شعر جميل صدقى زهاوى»، *المجلة البحثيّة عن النساء*، الرقم ١، الدور ٥.

يزدان‌پناه، مهرعلي (٢٠١٢م). «اللغة الفارسيّة و آدابها من منظور شعراء العراق»، *مجلة الجمعيّة العلميّة الإيرانيّة للغة العربيّة وآدابها*، العدد ٢٢، السنة الثامنة.

Archive of SID

www.SID.ir